محكم

الخطابة في الربيع العربي:

أي دور وأية رهانات؟

- الجزء الثاني -

حاتم عبيد

باحث تونسي

مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم الدراسات الدينية

جميع الحقوق محفوظة
مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث
All rights reserved
Mominoun Without Borders

نواصل في هذه الدراسة ما بدأناه في الجزء الأوّل منها، مستندين في ذلك إلى خلفيّة خطابيّة أرسطيّة، تعتبر الخطابة أداة يستعملها الناس، مثلما يستعملون الجدل لفحص الأفكار واكتشاف ما يقترب منها من الحقيقة، وما هو بعيد عنها. وذلك يرجع إلى ما للخطابة من قدرة على إنشاء سياقات تفاعليّة تنفتح فيها مسالك الحوار بين أصحاب الرأي والرأي المخالف، على النحو الذي يساعد على رؤية الوقائع والأفكار والمفاهيم من جوانب مختلفة لا يجلوها الاكتفاء بالنظر إلى تلك الأمور من زاوية واحدة. فالخطابة تعمّق فهم الإنسان بالمفاهيم والأفكار، لأنّها توفّر له الفرصة للدخول في نقاشات وحوارات مع أفراد آخرين لا يقاسمونه بالضرورة وجهة نظره، وهو ما يفتح بصيرته على رؤى أخرى للمسألة التي يدور عليها الحوار بدونها لا تنكشف الحقيقة، ولا يتمّ الوصول إلى اتّفاق. من هذا المنطلق نُسند إلى الخطابة دورا مهمّا في هذه المرحلة الحاسمة والدقيقة التي تمرّ بها بلدان الربيع العربيّ، ونعتقد بحقّ أنّ الخطابة قادرة اليوم على الإسهام في بناء قدر من الوفاق في مجال من المعرفة يسمّيه شاردو معارف اعتقاد (savoirs de croyance) التي تقابل معارف علم (savoirs de connaissance)، والتي لا ترمي إلى معرفة العالم في حدّ ذاته، بل تهدف إلى إصدار أحكام حول العالم؛ أي حول الأفراد الذين يعيشون فيه وما يحملونه من أفكار ورؤى وما يصدر عنهم من سلوك وأفعال (Charaudeau, 2005: 153).

ولمّا كانت أحكام الناس وتقويماتهم لما يجري في العالم من أحداث مختلفة ومتباينة أحيانا، احتاجوا إلى الخطابة كأداة يجسّرون بها الفجوة التي يمكن أن تقوم بينهم. والذي يؤكّد حاجتنا اليوم إلى الخطابة أكثر من ذي قبل، أنّ الثورات في بلدان الربيع العربيّ جعلت الناس يعيشون وضعا وجوديّا مختلفا عمّا كان سائدا، ووضعتهم أمام أحداث وظواهر غير مسبوقة، وأنتجت كمّا هائلا من الأفكار والمفاهيم (العدالة الانتقاليّة، تحصين الثورة، الثورة المضادّة...) لاشكّ في أنّ الخطابة ستكون من أنجع الوسائل لاختبارها والتعرّف عليها، وبناء تصوّرات حولها، والانتهاء بعد النقاش وتقليب النظر فيها إلى ما يشبه الاتّفاق حولها. دون ذلك، فهم للخطابة لا بدّ أن يُخلّصها ممّا لا ط بها عبر التاريخ من تهم لا تزال آثارها عالقة في الذهن إلى يوم الناس هذا. ودون ذلك أيضا، وعي بالأدوار الجليلة التي يمكن أن تقوم بها الخطابة اليوم، والتي من أبرزها تعزيز وحدة الجماعة وتقوية شعور الانتماء إليها عند الأفراد. وهذه مهمّة يقدر على النهوض بها- في تصوّرنا- نوع من الخطابة يُعرف بالتثبيتيّ/الاحتفاليّ على النحو الذي سيكشف عنه الجزء الأخير من هذه الدراسة.

في الدفاع عن الخطابة:

يعتقد كثير من الناس أنّ عصر الخطابة ولّى من غير رجعة، وأنّ من يريد أن ينتصب اليوم خطيبا لن يجد آذانا صاغية، ولن يعرف كلامه إلى عقول الجماهير وإلى قلوبهم طريقا؛ فزماننا هذا في تصوّر الكثيرين زمان لم يعد فيه الإنسان في حاجة إلى أن يهيّئ لأفعاله وقراراته بكثير من الأقوال، ولم يعد للناس صبر ولا فسحة من الوقت لسماع الخطب والنقاشات، مثلما كان الأمر في عصور خلت، بل وفي عهد غير بعيد، كان فيه زعماء السياسة، مثل فيدال كاسترو وجمال عبد الناصر والحبيب بورقيبة ومعمّر القذّافي يلهبون حماس الجماهير بخطب طويلة لا يتخلّلها انقطاع ليلتقط الخطيب أنفاسه، ولا يدبّ أثناءها الملل إلى من يسمعها. فالخطابة عند من يظنّ أنّها قد قضت نحبها لم يعد لها اليوم نفع ولا جدوى، بل هي لقب يُتنابز به، وصفة سلبيّة يُرمى بها الخطاب للدلالة على أنّه من لغو القول. وهذا ما يظهر بوضوح في عبارات متنوّعة تجري أثناء الحوارات والنقاشات تعبيرا من أحد المتكلّمين على اعتراضه على فحوى خطاب محدّثه وطريقة تقديمه إيّاه من نحو "كفانا خطابة" و"من فضلك لا تخطب علينا" و"دعك من هذه الخطابة الفارغة".

والحقّ أنّ هذا الموقف السلبيّ الذي يجرّد الخطابة من البعد العمليّ، ويرمي بها في دائرة الغلوّ والتضليل، ويجعلها إلى القول الكاذب أقرب منها إلى القول الصادق، يضرب في التاريخ بجذور ويتجلّى أحسن ما يتجلّى في إحدى محاورات أفلاطون الشهيرة، ألا وهي محاورة جورجياس (Gorgias) التي كتبت في بداية القرن الرابع قبل الميلاد، حين كانت الخطابة صناعة نافقة في أثينا وفنّا برع فيه السفسطائيّون الذين وفدوا على هذه المدينة، وعلّموا أبناءها هذا الفنّ وتقاضوا أجورا على ذلك، وكانوا محلّ نقد وسخط في هذه المحاورة التي أدان فيها أفلاطون على لسان سقراط الخطابة في مواطن كثيرة، واعتبرها إلى جانب التزيين والطهي والسفسطة ممارسة تجريبيّة لا ترقى إلى منزلة الفنّ الحقيقيّ الذي يهدف إلى تحقيق الخير الحقّ للنفس أو للجسم. يقول سقراط "إنّ البيان كما يلوح لي مزاولة عمليّة غريبة عن الفنّ (...) وأرى أنّ الاسم النوعيّ لهذا النوع من المزاولة العمليّة هو التملّق. وأنا أميّز في التملّق أقساما فرعيّة كثيرة؛ أحدها الطهي (...) وأنا أنسب إلى التملّق كذلك البيان والتزيّن والسفسطة كأجزاء مميّزة" (محاورة جورجياس، ص 56).

فالاعتقاد الذي تُنتجه الخطابة في النفوس ليس من صنو المعارف الصحيحة والدقيقة التي لا يرقى إليها شكّ، ولا هو من قبيل العلم الذي يكون دائما صادقا. والخطيب الذي يتحدّث في مواضيع شتّى لا يمكنه - وفق رؤية سقراط في المحاورة المذكورة- أن يملك العلم الصادق في كلّ فنّ يخوض فيه. ولذلك، فهو يتحيّل من أجل إقناع السامعين، ولذلك كان الاعتقاد الذي ينتجه في النفوس زائفا في بعض الأحيان، ولذلك أيضا كان المقتنعون بكلامه هم في الغالب من الدهماء وعامة الناس، وكانت الغاية من الخطابة تحقيق المتعة وإرضاء أذواق

السامعين. يقول سقراط في إحدى تدخّلاته: "إنّ البيان لا يحتاج إلى معرفة الحقائق عن الأشياء، وحسبه أن يخترع طريقة ما للإقناع يظهر بها أمام الجهلة أكثر علما من العلماء" (نفسه، ص 50)

وموقف أفلاطون من الخطابة في محاورة جورجياس، ينبغي ألاّ يحجب عنّا الوجه الآخر الذي يُظهر لنا أفلاطون على وعي كبير بما في اللّغة من سلطان وقدرة على الإقناع، إذا ما استعملها خطيب متمكّن من فنّه، وتُظهره لنا في الوقت نفسه واعيا بمخاطر هذه السلطة القوليّة، محذّرا من عواقبها، إذا ما استعملت لأغراض شخصيّة واستهدفت جمهورا جاهلا. ووعي أفلاطون بسلطان الخطابة وإعجابه بعظمتها يتجلّى في ذلك التدخّل الذي بيّن فيه جورجياس لسقراط أنّ "الخطباء هم الذين يدلون بالرأي في الانتخابات، وهم الذين يجعلون لرأيهم الغلبة" (نفسه، ص 45)، ويتجلّى بوضوح أكثر في قول سقراط معقّبا على قول جورجياس: "إنّني ألاحظ ذلك بدهشة يا جرجياس. ومن أجل ذلك رحت أسألك منذ عهد بعيد جدّا: ما هي هذه القوّة التي ينطوي عليها البيان؟ ويبدو لي من مشاهدة ما يجري أنّه أمر على عظمة الآلهة" (نفسه، ص ص 45-46). فأفلاطون لم يحمل على الخطابة في حدّ ذاتها، بل كانت حملته على ضرب من استعمال الخطابة لا يُظهر فيه الخطيب شغفا بالحكمة ومعرفة حقيقيّة بالعدالة. ولم تكن الخطابة عند أفلاطون بمعزل عن السؤال الكبير: كيف السبيل إلى حياة سعيدة وكريمة؟ أهي في تلك القوّة والعنفوان اللّذين يسخّرهما الفرد لتحقيق لذّاته وسيادة الآخرين، أم في ممارسة الفضيلة واقتفاء أثر الحكمة أينما وجدت؟

وإذا كانت محاورة جورجياس تقدّم لنا خطابة تنأى عن الحكمة والحقيقة وتقترن بالزيف، فإنّ في المحاورة التي تحمل اسم فيدر (Phaedrus) ذلك الشابّ اليافع المنتشي بالخطابة والكلف بالقول الجميل والمعجب في بداية المحاورة بالخطبة التي أنتجها أستاذه ليزياس (Lysias) أحد السفسطائيّين، ما يوحي بأنّ أفلاطون يقرّ بوجود خطابة أخرى فاضلة ونبيلة تهدف إلى بناء المجتمع وتنظيمه على أسس صحيحة، ويكون فيها الخطيب عارفا بمعادن الناس وأرواحهم، وقادرا من ثمّ على أن يجعل حججه تناسب تلك الأرواح وتؤثّر فيها. وقد تجسّدت هذه الخطابة البديلة في تلك الخطبة التي ألقاها بعد ذلك سقراط ودارت على الموضوع نفسه الذي دارت عليه خطبة ليزياس؛ أعني موضوع الحبّ، وكانت أكثر تنظيما وإحكاما، ومن ثمّ أكثر إقناعا من الخطبة الأولى. وفي ذلك إشارة واضحة إلى انتصار خطابة الفيلسوف على خطابة السفسطائيّ (Herrik, 2008: 63).

على هذا النحو كان أفلاطون حاملا على الخطابة ومدافعا عنها، منذّدا بها وممارسا لها، وعلى هذا النحو تقوم محاورة فيدر حجّة على من يكتفي بالقول بأنّ أفلاطون يزدري الخطابة ويجرّدها من كلّ نفع ولا يسند إليها وظيفة في بناء المدينة وإدارة شؤونها، وعلى غير هذا النحو نظر أرسطو إلى الخطابة صناعة قوليّة

يحتاج إليها أفراد الجماعة للتفاعل فيما بينهم وللوصول إلى اتّفاق حول عدد من المسائل لا تدخل تحت طائلة المعارف الدقيقة، ولا يملك فيها المتكلّم علما وحقائق، ولا يحصل بها للسامع معرفة، بل قصارى ما تنتجه لدى هذا السامع اعتقاد يجعله من المقتنعين والمصدّقين. نعم، لقد أدرك أرسطو جيّدا أنّ الخطابة لا يمكن تقويمها في ضوء المعايير التي استند إليها أستاذه أفلاطون، نعني معيار العلم ومعيار الحقيقة. وأدرك أرسطو عميقا أنّ في حياة الناس نوعا آخر من الحقائق والمعارف تتّسم بالغموض وتدخل في دائرة الظنّ، وأنّ للخطابة دورا جليلا في إدارة شؤون المدينة، يحتاج إليها صنّاع القرار ومنفّذوه وعامّة الناس في مختلف مظاهر حياتهم اليوميّة.

من هذا المنظور الأرسطيّ، نعتبر الخطابة صناعة قوليّة تنهض في المدينة بدور مهمّ، ومن هذا المنظور نحسب أنّ للمجتمعات العربيّة بعد الربيع العربيّ حاجة ماسّة إلى هذه الصناعة، وأنّ للخطابة دورا مهمّا في هذا الظرف العصيب الذي فيه كثرت الاختلافات وتعدّدت وجهات النظر إلى حدّ التباين. ونكتفي بالدلالة على هذه الحاجة بوظيفتين اثنيتن يمكن أن تضطلع بهما الخطابة في الفترات الانتقاليّة التي تلت الربيع العربيّ:

دور الخطابة في تشكيل المعارف وإيجاد أرضيّة مشتركة حولها:

لا شكّ في أنّ إسناد هذه الوظيفة المعرفيّة للخطابة يناهض التصوّر التقليديّ والأحادي الذي لا يرى مصدرا للمعارف إلاّ التجاربّ المباشرة أو غير المباشرة التي يتمّ نقلها عبر التعليم. فالتصوّر التقليديّ السائد يعتبر المعرفة موضوعا يُكتشف على النحو الذي يكتشف به علماء الفلك كوكبا جديدا يوجد في مكان بعيد. وفي لحظة مّا يتمكّن الفلكيّ من رؤيته. وإذا كانت بعض المعارف يصدق عليها هذا الوصف، فإنّ معارف أخرى كثيرة لا تدرك على هذا النحو، ولا يمكن البرهنة عليها وعلى صحّتها بالتجارب والآلات. فوجود أحد الكواكب من الأمور التي يمكن البرهنة عليها، ومن ثمّ يمكن الإقرار بمعرفتها على أساس أدلّة فيزيائيّة. وواضح أنّ الخطابة لا تضطلع في مثل هذا النوع من المعارف والكشوفات بدور يذكر. ولكن ماذا لو تعلّق الأمر بمعرفة عمر الكوكب؟ ألا يحتاج الفلكيّ في هذا الطور من المعرفة إلى حجج تسند رأيه. نعم، في هذا الطور تبدأ الخطابة في الاضطلاع بدور في تشييد المعرفة، ويبدأ العلماء الذين ينخرطون في نقاشات حول هذا الموضوع في استعمال معارفهم في فنّ الإقناع، حتّى يدافعوا عن وجهات نظرهم.

وما من شكّ في أنّ مثل هذه المسألة المتعلّقة بعمر الكواكب ربّما تصطدم بما يحمله الجمهور من أفكار دينيّة تتّصل بقدم العالم. وههنا تبدأ النقاشات ويبدأ التساؤل عمّا إذا كان يجوز تدريس مثل هذه المسائل في مؤسّسات التعليم، وهل يجوز أن ننفق الأموال الطائلة على البحوث التي تعنى بهذه الأمور، حتّى تحصل لنا فكرة واضحة عن هذه الكواكب، وهل يفيدنا كثيرا أن نعرف مدى تأثير هذه الكواكب على حياتنا؟ ولاشكّ في أنّ الخطابة تلعب دورا مهّا في فضّ مثل هذه القضايا والحسم في ما سيكون منها من قبيل المعارف التي تقبلها

الجماعة. وفي ذلك دليل واضح على أنّ الخطابة تؤثّر في مختلف ملامح بناء المعارف بدءا بما هو معدود من الوقائع والحقائق، وانتهاء بالكيفيّة التي يتمّ بها تأويل تلك الحقائق وبكيفيّة استثمارها لتبرير الأحداث.

نعم، للخطابة دور جليل في بناء المعرفة يتّضح، حين ندرك أنّ الجماعات تحتاج إلى قدر من التفاهم والاتّفاق على ما يُعدّ من المعارف والقيم. فليس من السهل أن يسود في المجتمع تصوّر واحد للعدالة أو الديمقراطيّة. وليس من اليسير أن يُرسي المجتمع بسرعة تصوّرا يتساوى الناس بمقتضاه أمام القانون، بل مثل هذه المفاهيم يستغرق نشرها وتحقيق الاتّفاق عليها وقتا يطول أحيانا، ويتطلّب أدوات لتحقيق التفاف الجماعة حولها، والخطابة من إحدى تلك الأدوات المسهمة في ترويج المعارف الاجتماعيّة والتمكين لها، سواء بالكتابة فيها أو بالحديث عنها. من هذا المنطلق يتحدّث روبير سكوت عن الخطابة، باعتبارها بانية للمعارف، ويعني بذلك أنّ الأفراد ينخرطون في تفاعلات خطابيّة ينتهون منها إلى قبول جملة من الأفكار على أنّها من الحقائق، ويرفضون في المقابل أفكارا أخرى، باعتبارها لا تمثّل الحقيقة. وهذا يرجع بالأساس إلى نزوع الخطابة نحو تمحيص الأفكار واختبارها وإخضاعها للامتحان. فالفكرة متى تدبّرتها الجماعة وأمعنت النظر فيها، صارت جزءا من المعارف المتّفق عليها التي لا تجد من أفراد الجماعة اعتراضا (Scott, 1967).

وأحسن مثال على دور الخطابة في تشكيل المعارف ما يجري اليوم من نقاشات واسعة حول مفهوم العدالة الانتقاليّة؛ فقد وجدت بلدان الربيع العربيّ نفسها أمام هذا المفهوم الجديد الذي اختلفت في شأنه الآراء والتصوّرات بين قائل بضرورة البدء بالمحاسبة والانتهاء بعد ذلك إلى المصالحة، وقائل بأنّ المصالحة هي أساس العدالة الانتقاليّة، وهي السبيل إلى تخليص هذا المفهوم، ممّا يمكن أن يشوبه من روح التشفّي والانتقام. ولاشكّ في أنّ ما يجري في الفضاءات العامّة والمنابر والبرامج التلفزيّة من نقاش واختلاف في وجهات النظر بشأن هذا المفهوم، لا بدّ أن يفضي في النهاية إلى اتّفاق الجماعة حول مفهوم يلتفّ حوله الجميع، ويصبح جزءا من معارفهم وثقافتهم. وقسْ على ذلك، النقاشات الدائرة هذه الأيّام في أوساط الساسة والحقوقيّين ومختلف مكوّنات المجتمع المدنيّ على مفهوم الشرعيّة. فهناك من يحصر الشرعيّة في صناديق الاقتراع، ويقول إنّها الضامن الوحيد للاستقرار ولتأمين التداول السلميّ على السلطة، ولا يرى غير الشرعيّة الانتخابيّة شرعيّة أخرى يمكن أن تقوّضها وتحلّ محلّها، حتّى وإن تعلّق الأمر بالفترات الانتقاليّة الهشّة. بينما يفرّق فريق آخر بين الشرعيّة والمشروعيّة، قائلا بأنّ الشرعيّة حقّ يناله من يحرز على أصوات أكثر في الانتخابات، ولكنّها لا تكفي أحيانا وفي فترات استثنائيّة لكي يظلّ المتمتّع بها في سدّة الحكم. فالشرعيّة الانتخابيّة لا معنى لها إن لم يفلح المتمتّعون بها في تسيير البلاد، ولم يحظوا بالقبول من مختلف مكوّنات المجتمع. ولا مانع من أن يحلّ محلّ الفائزين في الانتخابات ـ ولا سيّما في الحالات التي لا يكونون فيها أغلبيّة ساحقة ـ أفراد آخرون يحظون بثقة المجتمع ويتمتّعون بكفاءات عالية في الإدارة والتسيير، ومن ثمّ يكونون أحقّ بالحكم من أولئك الذين فازوا

في الانتخابات، ولكنّ شرعيّتهم تآكلت على التدريج، ولم تعد لهم أيّة مشروعيّة تبرّر استمرارهم في الحكم.أمّا الشرعيّة عند فريق ثالث، فتُستمدّ من الشارع وممّا يجري فيه من مظاهرات ومسيرات وحركات احتجاج، تكون الشرعيّة من نصيب من استطاع أن يدعو إليها ويقودها ويحشد الجماهير الغفيرة فيها. فلا شرعيّة وفق هذا التصوّر فوق شرعيّة الشارع، ولا صوت يعلو على صوت الجماهير إذا غضبت على من يحكمها وانتفضت، وخرجت إلى الشارع لتنقل الشرعيّة ممّن هي حقّ له إلى من يستحقّها، ولا موجب لانتظار مواعيد الانتخابات.

وما من شكّ في أنّ مثل هذه الخلافات حول مفهوم الشرعيّة وغيرها من المفاهيم التي جاء بها الربيع العربيّ، لا يمكن أن تُحسم بالقوّة. وليس من الممكن أن يحصل بين عشيّة وضحاها اتّفاق من أفراد المجتمع على أحدها، بل الأمر موكول إلى ما يدور حول تلك المفاهيم من نقاشات و"حراك خطابيّ" يفرز شيئا فشيئا فهما للشرعيّة يقتنع به الأفراد على اختلاف مشاربهم واتّجاهاتهم، ويصبح على مرّ الأيام من المعارف المشتركة التي لا يمكن التفكير خارجها كلّما تعلّق الأمر بالحكم، وبمن هم أهل له. وهذه المعرفة التي سيسهم الحراك الخطابيّ في إنشائها لا يمكن أن تكون بمعزل عمّا انتهت إليه الجماعات الأخرى من معارف تتّصل بتلك المفاهيم، ولا يمكن أيضا أن تعصف بما صار يُعدّ من المعارف الإنسانيّة لهذا العصر من قبيل الديمقراطيّة التي تُعتبر إلى حدّ الآن من أحسن الأدوات التي اكتشفتها الإنسانيّة، واستطاعت بفضلها أن تؤمّن عمليّة تداول الناس على السلطة تداولا سلميّا، وأن تُفرز طرفا يعترف الجميع بشرعيّته وبحقّه في إدارة البلاد فترة من الزمن يضبطها تاريخ معلوم.

ومن المفاهيم الجديدة التي أنتجها الربيع العربيّ، والتي هي الآن بصدد البناء والتشكّل، مفهوم تحصين الثورة الذي اختلفت حوله وجهات النظر، والذي يحتاج في تقديرنا إلى نقاشات مستفيضة ينبغي ألاّ يحتكرها الساسة ولا الحقوقيّون، بل يسهم فيها كذلك المؤرّخون وعلماء الاجتماع وغيرهم من أهل الثقافة والفكر. ولا خشية من تباين وجهات النظر. ولا خوف من أن يستغرق النقاش وقتا طويلا. فمن الثابت أنّ الحديث عن هذا المفهوم وتقليب النظر فيه من منظورات مختلفة، سيفضي في نهاية المطاف، إمّا إلى قبول المجتمع مفهوم تحصين الثورة وإضافته إلى الرصيد المشترك، وإمّا إلى رفضه واعتباره "أكذوبة" أرادت بها مجموعة من المواطنين "تصفية حساباتها" مع الخصوم، ومع من يمكن أن يشكّل طرفا يهدّد فرص تلك المجموعة في الفوز بالانتخابات. ومن الثابت أيضا أنّ الغلبة ستكون من نصيب من كان قادرا على إقناع الناس بالحجج والأدلّة على صواب الرأي الذي يدعو إليه. ومن الثابت كذلك أنّ بناء هذه المعرفة لا يمكن أن يتمّ بمعزل عمّا عرفته شعوب أخرى من ثورات جعلتها تواجه هذا المفهوم، وتتّخذه موضوع خطب وأحاديث كانت هي المحدّد في كيفيّة التعامل معه، وفي قبوله أو لفظه. فمن أهمّ أدوار الخطابة إذن، أنّها تسمح لممارسيها بفحص الأفكار واختبارها

وميز جيّدها من رديئها أمام الجمهور. فمن يحمل فكرة من الأفكار أو تصوّرا من التصوّرات، ويريد لفكرته تلك وتصوّره ذاك أن يجد القبول عند أفراد المجتمع، عليه أن يدافع عمّا جاء يعرضه على الناس، وأن يحسن الدفاع، ويعرف جيّدا كيف يعثر على الحجج التي تناسب دعوته وتخدم غرضه، وكيف يبني تلك الحجج ويرتّبها على النحو الذي يجعلها مقنعة، وكيف يختار تعابيره، وينتقي صوره البلاغيّة، حتّى يجعل السامع يقتنع بفحوى رسالته، ويتذكّرها، لأنّها رسخت في ذهنه ووقرت في ضميره.

فالربيع العربيّ وضع الجماهير العربيّة أمام أفكار جديدة ومفاهيم مستحدثة من الطبيعيّ ألاّ يحصل بشأنها اتّفاق، وأن يختلف الناس في كيفيّة إدراكها وفهمها والتعامل معها وتوظيفها. ودور الخطابة ههنا على غاية من الأهمّية. فحين تختلف الرؤى وتتباين الآراء- وكم هي اليوم مختلفة ومتباينة - تُعيننا الخطابة على أن يُعدّ كلّ منّا جوابا، وأن يقدّم حجّة يذود بها عن رأيه. والخطابة أيضا سبيلنا إلى تدبّر الأمور تدبّرا يقوم أساسا على النظر إليها من زوايا مختلفة على النحو الذي يساعد على رؤية الوقائع والحقائق بوضوح. وهذه مهمّة تنهض بها الخطابة، مثلما وضّح ذلك أرسطو قائلا: "وينبغي أن يكون الخطيب قادرا على إثبات المتضادّات كلّها في الحجج المنطقيّة (...) من أجل أن نرى بوضوح ما هي الحقائق. وإذا حاجّ شخص آخر محاجّة خاطئة، فإنّنا نستطيع من جانبنا تفنيده. وليس يوجد فنّ آخر يستنتج نتائج متضاربة: وإنّما الجدل والخطابة هما اللذان يفعلان ذلك" (كتاب الخطابة، ص ص 27-28). فالنقاشات الجارية والخطب التي تُلقى الآن حول المفاهيم التي جاءت بها الثورة، ربّما تبدو للناظر العجل ضربا من إضاعة الوقت أو من قبيل "الفائض الخطابيّ". ولكنّها عند من ينظر إليها بعين أخرى، تُعدّ فرصة مهمّة تُتيحها الخطابة لتقليب النظر في تلك المفاهيم تقليبا لا شكّ في أنّه سيجعل الناس يقتربون منها أكثر ويرونها بوضوح ويدركون مختلف أبعادها.

الخطابة ودورها في بناء الجماعة:

لا يمكن فهم هذا الدور إلاّ إذا جاوزنا التصوّرات السائدة التي تحصر مفهوم الجماعة (community) في الحدود الجغرافيّة، وفي نطاق المدن أو المقاطعات أو الأحياء داخل المدن، إذا جاوزنا ذلك إلى القول بأنّ الجماعة أساسها التفاف عدد من الأفراد حول جملة من القضايا والقيم على نحو يجعلهم يحملون عن العالم تصوّرا مشتركا، ويحدّدون اهتماماتهم وتطلّعاتهم مع تطلّعات شبيهة يحملها أفراد آخرون. من هذا المنظور؛ فالأفراد المنضوون داخل الكنيسة يمكن أن يشكّلوا جماعة. وكذلك المجموعة من العمّال المنتظمين داخل هيكل هم يشكّلون أيضا جماعة. والجماعة يمكن أن تتجسّد أيضا في عدد من الأفراد الذين ينتمون إلى مجموعة إثنيّة ويقطنون في حيّ واحد. من غير أن يعني ذلك بالضرورة أنّ كلّ مظهر من مظاهر الجماعة هو نتيجة ممارسة خطابيّة. نعم، إنّ الانتماء العرقيّ على سبيل المثال ليس وليد ما يتداوله الأفراد من خطابات، ولا دخل للقول

الخطابيّ في إنشائه. ولكنّ ذلك الانتماء لا يكفي وحده في بعض الأحيان لإنشاء جماعة قويّة. ومن هنا، يأتي دور الخطابة وتبادل القول بين الأفراد الذي يجمعهم عرق واحد، إذ بممارسة القول الخطابيّ يتمكّن أولئك الأفراد من العمل على تطوير مجموعة من القيم والمعتقدات المشتركة بينهم وخلق أفق من التطلّعات والآمال يشترك الجميع في التطلّع إليه.

ومن أحسن الأمثلة التي يمكن أن نستحضرها في مثل هذا المقام للبرهنة على أهمّية دور الخطابة في ما نحن منه بسبيل، تلك الحركة التي قادها لوثر كينغ (Martin Luther King) في الولايات المتّحدة الأمريكيّة بين 1950 و1960، وكانت أداة الحراك والصراع آنذاك سلميّة، تقوم بالأساس على توعية الجماهير عبر النقاشات وإلقاء الخطب، وكانت ثمرة ذلك النشاط الخطابيّ الذي مارسه لوثر كونغ وبرع فيه ميلاد جماعة اشترك أفرادها في الدعوة إلى السلام والمطالبة السلميّة بأن يتمتّع السود في الولايات المتّحدة الأمريكيّة بحقوقهم المدنيّة. وقد أفلح لوثر كونغ رفقة عدد من زملائه في خلق جماعة تلتفّ حول مجموعة من القيم والممارسات، وتنجز أعمالها وأنشطتها من خلال إلقاء الخطب. نعم لقد دعا لوثر إلى جملة من القيم بطريقة تعتمد التأثير والإقناع، من نحو المساواة والعدالة والسلم. وكان يقوم باختبار عدد من الأفكار في المحافل العامّة من قبيل الميز العنصري الذي تمّ رفضه، مقابل الدعوة إلى ضرورة توحّد الأعراق. وكان لوثر يستقدم الأحداث التاريخيّة والوقائع، ليجعلها نصب أعين الجماهير الحاضرة، مثل الطريقة التي يعامل بها السود الأمريكيّون في أمريكا. وكانت خطبته الشهيرة "عندي حلم" التي ألقاها يوم 28 أوت 1963 أمام ضريح أبرهام لنكلن (Abraham Lincoln) بواشنطن وخلال المسيرة التي نظّمت ساعتئذ للمطالبة بحقّ السود في العمل والحرّيّة، كانت تلك الخطبة تحمل تطلّعات قائلها إلى أمريكا جديدة ترقى إلى مصافّ الأمم العظيمة، ويعمّ فيها السلام، وتتحوّل المناطق التي يعاني فيها السود من ظلم البيض إلى واحة للحرّية والعدل أين يرى الأسود أبناءه يمسكون بأبناء البيض، ويسيرون جنبا إلى جنب كأنّهم إخوة وأخوات. وقد وفّق لوثر في نحت لغة يتحدّث بها عن التكامل والانسجام العنصري داخل أمريكا. وقد ألهم حلمه بأمريكا موحّدة عرقيّا ومقاومته السلميّة العديد من الحركات الداعية إلى الحقوق المدنيّة التي اتّخذت من مصطلحاته جزءا من معجمها.

لقد كان لوثر يكتب ويتكلّم. وكانت أفكاره تجد طريقها إلى التعبير. وكانت تُختبر خلال إلقاء الخطب، فمنها ما يُقبل، ويصبح جزءا من معارف تابعيه واعتقاداتهم، ومنها ما يُرفض. وكان أولئك الذين يعتنقون أفكاره يتحوّلون إلى جزء من تلك الجماعة الكبيرة التي أسّسها لوثر على التدريج. وهكذا تمكّن لوثر من خلال جهوده الخطابيّة أن يشيّد جماعة خطابيّة تسمح للأفراد بأن يفكّروا ويتصرّفوا في إطار وحدة جامعة لمجابهة عدد من القضايا الاجتماعيّة المهمّة، وتمكّن أيضا من تطوير جماعة ناشطة وفاعلة ملتفّة على عدد من الأفكار القويّة، أصبح لها صوت مجلجل لا يزال صداه يتردّد إلى يوم الناس هذا (Herrik, 2008: 22-23).

فكم نحن اليوم في حاجة إلى خطابة من هذا النوع في ظلّ خلافات سياسيّة وإيديولوجيّة تكاد تعصف بوحدة المجتمع في دول الربيع العربيّ، وتحوّل أفراده إلى جماعات متناحرة، رغم ما يجمع بينهم من قواسم مشتركة في اللّغة والعرق والدين. وإنّ توفّر مثل هذه الخطابة من شأنه أن يعطف قلوب الجماهير على جملة من الرموز، ويسهم من خلال استعمال الخطباء عددا من الصور والاستعارات في إيجاد طريقة من التفكير يشترك فيها الأفراد، ويتمّ من خلالها التعامل مع القضايا المطروحة واستيعاب المفاهيم الجديدة التي جاءت بها الثورة. وهذا ما يؤهّل الخطابة للقيام بوظيفة خلق روابط مشتركة جديدة، تعزّز الشعور بمعنى الجماعة في الفترات التي يضعف فيها ذلك الشعور جرّاء ما تولّده بعض الحوادث وكيفيّة تأويلها والتعامل معها من اختلاف في وجهات النظر. ومعنى الجماعة والشعور بالانتماء إليها يتعزّزان أيضا عبر الزمن من خلال التفاعلات الخطابيّة الدائرة بين الأفراد الجماعة وبين أفراد الجماعة وأفراد جماعات أخرى. ولعلّ هذا ما عناه هوجان حين اعتبر الجماعات كائنات تعيش وتتغذّى من خلال الخطابات البلاغيّة (Hogan, 1998).

والحقّ أنّنا حين نلقي نظرة عجلى على الخطب التي يُلقيها صباح مساء القادة السياسيّون وزعماء الأحزاب والنشطاء في الحقول السياسيّة والحقوقيّة؛ نجد أغلبها يسهم بدرجات متفاوتة-عن وعي في بعض الأحيان وعن غير وعي في أحيان كثيرة-في تفريق الجماهير أكثر من تجميعها؛ فالذي يميّز المشهد السياسيّ اليوم كثرة الخطب وتعدّد الفضاءات التي ينتج فيها الساسة الخطب، والذي يميّز أغلب تلك الخطب تكلّم خطبائها بألسنة مختلفة، ودفاعهم عن مصالح شخصيّة متضاربة، وصدورهم عن رؤى حزبيّة ضيّقة وإيديولوجيّات متدافعة تقعد بهم عن كسر الطوق الضيّق الذي يفكّرون فيه ويرون الربيع العربيّ من خلاله، ولا تمكّنهم من إنشاء جماعة خطابيّة واسعة تتّسع لمختلف أفراد المجتمع، وتساعدهم على أن يلتفّوا حول قيم مشتركة على ما بينهم من اختلافات، وعلى أن يكونوا صفّا واحدا في مجابهة المشاكل التي وجدوا أنفسهم يتخبّطون فيها بعيد الربيع العربيّ، وأن يقدروا على التخلّي عن حساباتهم الحزبيّة، حين تقتضي المصلحة الوطنيّة التخلّي عن ذلك.

والحقّ أنّ في أنواع الخطابة الثلاثة التي ضبطها أرسطو نوعا يقدر أكثر من غيره على جعل الخطابة في الربيع العربيّ تستطيع النهوض بهذه الوظيفة المتمثّلة في بناء الجماعة، وتمتين عرى الصلة بين أفرادها وتعزيز شعور الانتماء لديهم؛ نعني بذلك ما يعرف بالخطب التثبيتيّة/الاحتفاليّة (epideictic oratory) التي اضطلعت بدور مهمّ في المجتمع الأثينيّ، فكانت فرصة ينتهزها الخطباء بين الحين والحين، وكلّما وقع حدث أو تعرّضت الجماعة لخطر أو حقّقت انتصارا. وذلك للإشادة أمام الناس بالسلوك القويم وتذكيرهم بالقيم النبيلة، حتّى يلتفّوا حولها ولا يحيدوا عنها، والذي يميّز الخطابة التثبيتيّة من النوعين الآخرين، نعني الخطابة القضائيّة/المشاجريّة (forensic oratory) الدائرة على العدل والخطابة المشوريّة (deliberative oratory) التي تدور على النافع والضارّ، أنّها لا تخلق مواجهة بين طرفين متقابلين يختلفان في الرأي، ويسعى

كلّ واحد منهما إلى الانتصار لرأيه وتفنيد رأي خصمه. وهذا ما يجعل المصالح في كلّ من الخطابة القضائيّة والخطابة المشوريّة تتدافع والتنافس بين الأفراد يحتدّ أحيانا. أمّا في الخطابة التثبيتيّة، فلا مجال للمصالح الذاتيّة، وكلّ خطيب يترك نفسه على هواها، ويحوّل وجهة الخطاب من الحدث الذي هو بصدد إثارته وتخليده إلى ما يخدم مصلحته، لن يجد من الجمهور تفاعلا، بل سيولّد عندهم شعورا بأنّه أساء استثمار الحدث. فالمجتمعات على اختلافها لم تنشئ هذا النوع من الخطاب الذي يتجسّد في إلقاء خطب احتفاليّة يحرص الناس على حضورها، إلاّ لكي توفّر الفرص لأفرادها، حتّى يعبّروا عن الإرث القيمي الذي يمتلكونه ويعيدوا بناء ذلك الإرث الذي يتّصف بالحركة لا بالسكون والجمود. فالجماعات لا تفتأ تجدّد فهمها لذاتها ولما يُعدّ عند أفرادها خيرا وحقّا، وذلك من خلال سعيها الدؤوب إلى إيجاد الصلة بين القيم والمعتقدات القديمة والحوادث الجديدة والوقائع الطارئة من نحو الحروب والموت. (Condit, 1985: 289).

وحاجة المجتمعات إلى هذا النوع من الخطابة تكون أشدّ في الفترات التي تشهد فيها أحداثا مربكة ومثيرة للقلق، من نحو ما تمرّ به مجتمعات الربيع العربيّ الآن من أحداث ووقائع لا يزال الناس مدهوشين وحيارى أمامها، غير قادرين على فهمها واستيعابها، لخروجها عن المألوف والمنتظر، ولشدّة تسارعها. فمَن كان يتصوّر أن يأتي على البلاد العربيّة يوم تخرج فيه الشعوب رافعة صوتها، منادية بسقوط الأنظمة العاتية التي تحكمها بقبضة من حديد، فتنجح في ذلك، وتدخل في طور جديد ومسار غير محدّد لا تعرف عواقبه ولا تدرك نهايته، وتعيش لحظات من التقلّب وعدم الاستقرار، ويتأرجح شعورها بين الرجاء واليأس، وبين التطلّع إلى مستقبل جميل والخوف من مجهول لا يعرف أحد إلى أين يمكن أن يقود. ومسؤوليّة الخطيب في مثل هذه اللّحظات جسيمة، لأنّه مدعوّ إلى أن يفسّر للجمهور هذا الحدث الذي هزّهم، وأن يستند في ذلك التفسير الذي يقدّمه لهم إلى خلفيّاتهم القيميّة والاعتقاديّة، حتّى يهدّئ من روعهم، ويأخذ بأيديهم إلى فهم ما يدور حولهم ويجري أمام ناظريهم من وقائع مربكة. فالخطابة التثبيتيّة تساعد على استكشاف الدلالات التي يحملها الحدث الجديد إلى الجماعة، وعلى التلويح بما يمكن أن تصنعه تلك الجماعة لمواجهة ذلك الحدث؛ فالجماعات تحتاج بين الحين والحين إلى من يعرّفها ويذكّرها بأهمّ التجارب التي يشترك فيها أفرادها، لأنّ الانتماء إلى الجماعة يعني من أهمّ ما يعني تماهي ذلك الفرد وما تمتلكه الجماعة من رموز وقيم وأساطير وإرث ثقافيّ لا ينفكّ الخطباء التثبيتيّون عن استحضاره في خطبهم.

نعم، كم نحن في حاجة هذه الأيّام التي تتتالى فيها أحداث عاصفة تكاد تقتلع المجتمع العربيّ من جذوره، إلى خطابة تثبيتيّة تجمع الناس ولا تفرّقهم، وتُثبّتهم على المبادئ التي تجمعهم، ويفلح ممارسوها في إيجاد أرضيّة مشتركة تعرّف المواطنين بأنفسهم في اللّحظات الصعبة التي تهتزّ فيها الأرض تحت أقدامهم، وتذكّرهم

بما لديهم من إرث مشترك من القيم والمعتقدات، حتّى يتعرّفوا على أنفسهم من جديد، ويعيدوا فهم ذواتهم، ويعودوا إلى الخيمة التي تؤويهم.

وكم يشعر الواحد منّا بالخيبة والحسرة واليأس أحيانا، حين يستحضر ما ينتجه خطباؤنا بمناسبة الملمّات التي تنزل علينا كلّ يوم، من أقاويل لا تسمع فيها إلاّ كيل الاتّهام إلى هذا الطرف أوذاك، والإسراع بدون الاستناد إلى أدلّة قاطعة إلى تحميل هذه الجهة أو تلك مسؤوليّة ما يحصل من اغتيالات وانفجارات. لا هدف يحرّك الخطيب إلاّ الركوب على الحدث، وتحويله من مناسبة كان يمكن أن تكون فرصة للمّ الشمل وعطف القلوب على الإرث القيميّ المشترك ونداء الجميع إلى التقارب، إلى بيان حزبيّ فجّ، تهيمن عليه نبرة الاتّهام والمقاضاة، ويسهم في تغذية الخلاف والتوتّر بين الفرقاء السياسيّين، بل وبين المواطنين الذين هم في نهاية الأمر ضحايا هذا اللّون من الخطابة.

قائمة المراجع:

- أرسطو، **فنّ الخطابة**، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، آفاق عربيّة، بغداد، 1986
- أفلاطون، **محاورة جورجياس**، ترجمها عن الفرنسيّة، محمّد حسن ظاظا، راجعها علي سامي النشّار، الهيئة المصريّة العامّة للتأليف والنشر، القاهرة، 1970
- Charaudeau, P. (2005): Le discours politique, Vuibert, Paris.
- Condit, C. M. (1985): The Functions of Epideictic. Communication Quarterly, Vol.33, No. 4
- Herrik, J. A. (2008): The History and Theory of Rhetoric: An Introduction.
- Hogan, M.(1998): Rhetoric and Community: Studies in unity and Fragmentation. Columbia, SC, 1998
- Nichols, M. P.(1987): Aristotle's Defense of Rhetoric, The Journal of Politics. Vol. 49, No.3
- Scott, R. L. (1967): On Viewing Rhetoric as Epistemic. Central States Speech Journal, No.18

MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm
Mominoun

الرباط – المملكة المغربية
ص.ب : 10569
هـاتـف: 00212537779954
فاكس: 00212537778827
info@mominoun.com
www.mominoun.com